الطبعة الثانية
2015م - 1436هـ

مغامرات شارلوك هولمز

The Adventure of the Beryl Coronet

مغامرة تاج الزمرد

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سليمان حسون

أجيال الغد
سورية - دمشق - هاتف: 2256733 / 2262422 11 00963
ص.ب: 31453 - agyalalgadsyr@gmail.com
أشرف على التنفيذ الفني والطباعي دار الحافظ
daralhafez.net

11

مغامرات شارلوك هولمز

The Adventure of the Beryl Coronet

مغامرة تاج الزمرد

تأليف: آرثر كونان دويل

نشرت للمرة الأولى في مجلة ستراند
أيار 1892

ترجمة: سليمان حسون
مراجعة: لينا حجازي

مُقدِّمةٌ

تفوَّقت شخصية شارلوك هولمز على شهرة مخترعها سير آرثر كونان دويل وتجاوزت شهرتها ليس فقط لندن والجزيرة البريطانية، بل بلغت أقاصي العالم مع ترجمة أعمال ومغامرات هولمز إلى كل لغات العالم تقريباً. فلم يعد أحد من الشَّبان أو الشَّابات إلا ويعرف من هو ذلك المحقق اللامع الذّكاء الذي يعير انتباهاً إلى أدق التَّفاصيل عندما يضع قضية ما تحت مجهر فحصه الدَّقيق. ومن منا لا يذكر براعة هولمز في فك طلاسم أعقد الألغاز وأشدها غموضاً بطريقة تحليله المنطقية الشَّهيرة. تعتبر شخصية هولمز غير الحقيقية طبعاً واحدةً من أكثر الشَّخصيات تأثيراً في القراء خلال القرن العشرين نظراً لمخاطبتها عناصر أساسية في شخصية أي إنسان لتحفيز قدراته العقلية، وتفكيره من أجل الوصول إلى حل كل لغز اشتركت فيه. وكأنَّها (أي شخصية هولمز) كانت تحث القارئ دوماً وتحفزه للوصول إلى الحقيقة، أو حل اللّغز

المطروح بشكلٍ يجعل القارئ يضطر لاستخدام كل ملكاته الفكريَّة والعقلية للوصول مع هولمز وواطسون إلى حقيقة الأمر، أو حتَّى أن يسبقهما في التَّوصل للحقيقة. الطَّريف في شخصية هولمز أنَّها وعلى الرغم من أنَّها تقدِّم لنا شخصاً من لندن في نهاية القرن التَّاسع عشر إلا أنَّها من خلال طريقة تعاملها مع ما حولها ومن حولها تبدو شخصية أكثر معاصرة وكأنَّ كونان دويل نجح بتحويلها إلى شخصية خارج إطار زمان محدد.

الأهم من شخصية هولمز التي تتسيَّد كل قصص كونان دويل هي شخصيَّة كاتبها التي تشي بشخص عاش حياته كتجربةٍ عظيمةٍ تمكَّن إلى أقصى حد في تصويرها من خلال شخصية هولمز، أحياناً وشخصية د. واطسون بصورةٍ أكبر وأكثر جلاء. كما تمكّن الفنان سيدني باجيت من ابتداع صورة نمطية محدَّدة ومشوِّقة للسيد هولمز في أذهاننا، مع مواكبة قصص كونان دويل برسومات جميلة جعلت صورة هولمز المرتدي لقبعته المميزة. وغليونه الجميل، صورة لا تمحى من أذهاننا.

آرثر كونان دويل
مؤلف شخصيَّة «شارلوك هولمز»

ولد الطبيب والروائي البريطاني السير آرثر كونان دويل في أدنبرة باسكتلندا سنة 1859، واشتهرت الشَّخصية التي ابتدعها «شارلوك هولمز» لرجل التَّحري الذَّكي القادر على فك ألغاز الجرائم، معتمداً على امكاناته الذِّهنية وقوة الملاحظة، واتباع طريقة الملاحظة والتَّحليل والاستنتاج بالاعتماد على العلم والمنطق، هذه الشَّخصية التي أصبحت أكثر شهرة من مبتدعها.

وقد مُثلت العديد من رواياته وقصصه، وتحوَّلت إلى أفلام سينمائية وأفلام كارتونية. وقد هجر السير آرثر دويل مهنة الطّب بعد أن مارسها ثماني سنوات، واتَّجه إلى الأدب، واستطاع أن يبدع فيه. بدأ حياته الأدبية سنة 1887 بكتابة القصص القصيرة للمجلات بهدف زيادة دخله. يقول النَّاقد كريستوفر مورلي عن شارلوك هولمز: لم يحدث أبداً أن نالت شخصيَّة روائيَّة هذا الحظ من القدرة على امتاع القرَّاء والالتصاق بهم بمثل ما نالت شخصية شارلوك هولمز. فالسير آرثر دويل بعد أن مارس مهنة الطّب في عيادته التي لم يكن يزورها إلا النُّزر اليسير من المرضى، كان يجد أوقاتاً

كبـيرة مـن الفـراغ، شـغلها بكتابة القصـص القصـيرة، والتي لم تنل حظاً من النَّجاح في البداية.

إلا أنَّـه وبعـد نـشر روايتـه الأولى عـن شـارلوك هولمز سـنة 1887 أخـذ نجمـه في الصّعـود. وبلغـت مجمـوع القصـص والرِّوايـات التـي كتبهـا السـير آرثـر دويـل وظهـرت فيهـا شـخصية شـارلوك هولمز حوالي 60 عملاً، جُلَّهـا من القصص القصـيرة ، حتّـى أصبـح السـير آرثـر دويـل مـن أكثـر كتّـاب القصّة القصيرة دخلاً في عصره.

ونظـراً لجهـوده في دعم الحكومـة البريطانية في حـرب البوير «1899 - 1902» رقِّيَ إلى رتبة فارس سنة 1902.

شارلوك هولمز

شـخصيَّة خياليَّـة لمحقِّـق مـن أواخـر القـرن التَّاسـع عـشر وأوائـل القـرن العشريـن، ابتكرهـا الكاتـب والطَّبيـب الاسـكتلندي سـير آرثر كونان دويل، ظهرت الشَّـخصية لأول مـرة في 1887، واشـتهرت الشَّـخصية بمهارتهـا الشَّـديدة في اسـتخدام المنطـق والمراقبـة لحل القضايـا، وقد يكون هو أشـهر محقِّـق خيـالي في العـالم، وهـو بالفعـل أحـد أكثـر الشَّـخصيَّات الأدبيَّة المعروفة بشكلٍ عالمي.

كتـب كونـان دويـل أربـع روايـات، وسـتاً وخمسـين قصَّـة

قصيرة من بطولة هولمز، رويت جميعها من قبل صديقه الحميم وكاتب سيرته دكتور جون هـ. واطسون، باستثناء قصَّتين رواهما هولمز بنفسه، واثنتين رويتا بضمير الغائب.

وصف شارلوك هولمز نفسه بأنَّه محقِّقٌ استشاري خبير، يتم استدعاؤه لحل القضايا التي يثبُت أنَّها صعبة الحل جدَّاً على المحققين الرَّسميين (النَّمطيين). وتُخبر القصص أنَّه كان قادراً في العديد من المناسبات على حل القضايا بدون مُغادرة بيته، دون أن تهتم القصص بتقديم الكثير من هذه القضايا الصَّغيرة، مُركِزَةً على القضايا المشوِّقة التي تتطلَّب منه القيام بتحريك ساقيه فعلاً. يتخصَّص هولمز في حل القضايا الغريبة مستخدماً قواه الاستثنائية في المراقبة والتَّحليل المنطقي.

يُصوَّر هولمز بشكلٍ دائم في الوسائط الإعلامية المختلفة مرتدياً قبعة صائد الأيائل وعباءته، مُدخناً غليوناً، وممسكاً بعدسةٍ مكبرة. ويوصف هولمز بأنَّه سيدٌ إنجليزي من الطِّراز الفيكتوري، طويلٌ ورشيقٌ، له عينان حادَّتان دقيقتان، وأنف معقوف. بالرُّغم من قامته النَّحيلة فإنَّ قدراته البدنيَّة عالية. هو ملاكمٌ ومبارزٌ ماهرٌ، وعادة ما يتغلَّب على خصومه في المرات القليلة نسبيَّاً التي اضطر فيها للاشتباك جسديَّاً. وفي مغامرة إكليل العقيق يقول هولمز أنَّه: (يمتلك قوة استثنائية في أصابعه). أمَّا في مغامرة المنزل الفارغ فيذكر أنَّه: (يمتلك

القليل من المعرفة حول المصارعة اليابانية). كان يعيش هولمز في لندن شارع بيكر عنوان 221 B.

في أوَّل قصصه، دراسة بالقرمزي، قُدِمَت بعض المعلومات عن خلفية هولمز. قُدِم في 4 آذار 1881 على أنَّه طالب كيمياء مستقل، له مجموعةٌ واسعةٌ من الاهتمامات الجانبية، وتقريباً؛ فإنَّ كل هذه الاهتمامات تصب في مجرى مساعدته ليصبح خارقاً في حل الجرائم. في مغامرة أخرى مبكِّرة بعنوان مغامرة غلوريا سكوت، تتضح الأسباب التي دعت هولمز إلى العمل كمحقق خاص؛ امتداح والد زميله في الكلية الشَّديد لمواهبه وقدراته الاستنتاجيَّة.

في مغامرة المترجم الإغريقي، يقول هولمز: أنَّ جدَّته كانت شقيقة الرَّسام الفرنسي فيرنو. وفي دراسة بالقرمزي، يضع دكتور واطسون تقييماً لمهارات شارلوك:

ويعتبر شارلوك هولمز أيضاً مُحلِّل شفرات كفء، ويقول لواطسون: أنا متآلف مع كل أشكال الكتابة السريَّة بشكل جيد، وأنا نفسي مؤلف كتاب ثانوي حول الموضوع، حللت فيه مائة وستين شفرة منفصلة. حُلت إحدى الشَّفرات في مغامرة الرِّجال الرَّاقصين، التي استخدمت سلسلة من الأشكال الأوليَّة.

كما أظهر هولمز نفسه كأستاذ في التَّنكر بعد أن تنكر في

أشكال مختلفة خلال مغامرات: بحار (علامة الأربعة) وسائس خيل، ورجل دين (فضيحة في بوهيميا)، ومدمن أفيون (الرَّجل ذو الشفة المقلوبة)، ومتبطل عادي (مغامرة إكليل العقيق)، وكاهن إيطالي عجوز (مغامرة المشكلة الأخيرة)، وبائع كتب (مغامرة البيت الفارغ)، وعامل تمديدات صحيَّة أو سبَّاك (مغامرة تشارلز أغسطس ميلفيرتون)، ورجل محتضر (مغامرة المحقِّق المحتضر)، وأخيراً متسول كلب آل باسكرفيل.

ويمكن اعتبار هولمز رائداً في علم الأدلَّة الجنائيَّة الحديث لاستخدامه هذا العلم في قضاياه، مثل: تعرفه على الفروقات بين أنواع الآلات الكاتبة لفضح الاحتيال (قضية هوية). وتوصله إلى جريمة باكتشافه قطعتين من البقايا البشرية (مغامرة صندوق الورق). وملاحظته لبقايا بارود على الضحية (مغامرة ميدان ريغاتي). وملاحظته نوع الرَّصاص المستخدَم في جريمتين (مغامرة البيت الفارغ). واستخدامه بصمة الأصابع لتحرير رجل بريء (مغامرة باني نوروود).

عاش شارلوك هولمز تاريخياً، في 221 B شارع بيكر، لندن منذ 1881، حيث أمضى العديد من سنواته المهنية مع صديقه الحميم دكتور واطسون، الذي تشارك الشقة معه قبل زواج واطسون في 1890. وكانت تشرف على صيانة

الشقة والاهتمام بها السيدة مارثا هدسون، مالكة البناية. وقد وصف دويل الحي الذي يعيشان فيه بدقة، حتَّى أنَّ الكثيرين من القرَّاء زاروا شارع بيكر للبحث عن العنوان الخيالي.

ومن أبرز الشَّخصيات التي ظهرت في حياة شارلوك هولمز:

د. واطسون

واطسون؛ صديق هولمز الحميم، وكاتب سيرته الذَّاتيَّة، كما أنَّه يقوم بتسجيل معظم قضايا هولمز. وفي القصص الأخيرة ينتقد هولمز واطسون دائماً لأنَّه يروي القصص بشكلٍ مثيرٍ، مبتعداً عن الطَّريقة الموضوعية والمفصَّلة للتقارير التي تركز على ما يُسميه هولمز (العلم المحض). واطسون، بالمقابل، له سمعة مبررة بعض الشَّيء كرجل يميل إلى النّساء، يتكلَّم بحب عن بعض النِّساء، وفي بعض القصص الطَّويلة كثيراً ما يركِّز على جمال امرأة معيَّنة، وفي النِّهاية فإنَّه يتزوَّج واحدة بالفعل. ماري مورستان من رواية علامة الأربعة.

جيمس موريارتي
«عدو شارلوك هولمز الأزلي»

البروفيسور جيمس موريارتي (نابليون الجريمة)، هو في

الأساس معلِّم الرياضيات الخصوصي لهولمز، كما أشير لذلك أيضاً في عمل بارينغ-غولد. وهو المشكلة الأساسية في العديد من قضايا شارلوك هولمز.

سقط مع هولمز أثناء صراعهما في شلالات راينباخ. ونوى كونان دويل أن تكون (المشكلة النِّهائية) التي حدث فيها ذلك، هي آخر قصة يكتبها عن هولمز، لكنَّ الرَّسائل الكثيرة التي استلمها مطالبةً بعودة هولمز أقنعته بالاستمرار في كتابة القصص. وفي (مغامرة المنزل الفارغ) أخبر كونان دويل أنَّ موريارتي وحده من سقط في الشَّلال، وأنَّ هولمز جعل العالم يعتقد بأنَّه مات أيضاً ليراوغ أتباع موريارتي.

آيرين أدلر

المرأة الوحيدة التي أبدى هولمز اهتماماً بها. وتبعاً لما قاله واطسون، فإنَّ هولمز كان يشير إليها دائماً باعتبارها (المرأة). بالرُّغم من أنَّ هولمز نفسه لم يستخدم هذا المصطلح، على أنَّه ذكر اسمها الفعلي عدَّة مرات في قضايا أخرى. وهي أيضاً واحدة من النِّساء القلائل اللائي ذُكرن في قصص شارلوك هولمز، بالرُّغم من أنَّها ظهرت فقط في قصة فضيحة في بوهيميا، إلا أنَّها غالباً ما اعتبرت المرأة الوحيدة التي كسرت تحفُّظ هولمز. وهي المرأة الوحيدة التي هزمت هولمز في لغز.

مايكروفت هولمز

الشَّقيق الأكبر لهولمز، الذي يمتلك قوى تحليلية تفوق حتَّى تلك التي يتمتَّع بها شقيقه الأصغر. وبالرُّغم من ذلك فإنَّ مايكروفت غير قادر على أداء عمل تحرٍ مشابه لعمل شارلوك، لأنَّه لا ينوي بذل أي جهد جسدي ضروري لحل القضايا.

ليس لديه طموح أو طاقة، ولن يتزحزح عن هذا حتَّى ليثبت حلوله الخاصَّة، ويُفضِل أن يُعتبر حله خاطئاً على أن يتحمَّل عناء إثبات صحة كلامه. كثيراً ما أخذت مُعضلاتي إليه، وحصلت منه على شروحات ثبت صحتها فيما بعد، غير أنَّه كان دائماً غير قادر على حل النّقاط العمليَّة.

مغامرة تاج الزمرد

فيما كنت أُطلُّ من نافذة غرفتنا وأنظر إلى الشّارع، قلت: هولمز! هناك شخص مجنون يتجوّلُ وحيداً. يبدو أنّه من المُحزن أنّه يتوجّب على أقاربه السّماح له بأن يخرج لوحده.

نهض صديقي بكسل عن كرسيه ووقف واضعاً يديه في جيوبه ونظر من خلف كتفي. كان صباح يومٍ منعش من أيام شباط، وكانت الثلوج التي تساقطت قبلً يوم ما زالت متناثرة على الأرض وقد شكلت طبقة عالية، كانت أشعة الشّمس الشتوية تنعكس على الثّلج بشكلٍ جميلٍ. كانت حركة المرور قد شقّت طريقاً وسط الثّلج أًصبح لونه بنيّاً وسط شارع بيكر، بينما بقي الثّلج أبيض ناصعاً على جانبي الطّريق كما سقط من السّماء، كما بقي الثّلج مكدّساً على جانبي الطّريق. وبالرغم من تنظيف الرّصيف الرّمادي إلا أنّه لا يزال زلقاً بشكلٍ خطيرٍ، لذلك كان عدد المارّة أقل من المعتاد في مثل هذا الوقت، حتّى أنّه لم يكن هناك أي قادم من

جهة محطّة متروبوليتان سوى ذلك الرّجل الذي لفت انتباهي بتصرفاته الغريبة.

كان في نحو الخمسين من العمر، طويل القامة وجسده ضخمٌ ومميّزٌ كما بدا وكأنّه يتمتّع بشخصيّةٍ قويّةٍ. وبالرّغم من كآبة ملابسه إلا أنّها كانت أنيقة، فقد ارتدى سترةً سوداء طويلة فوق بنطالٍ رمادي مناسب لجسده وانتعل حذاءاً بنيّاً أنيقاً، ووضع على رأسه قبّعةً سوداء طويلة ولامعة. لقد لاحظت تناقضاً كبيراً بين تصرفاته الغريبة وأناقة ملابسه ووقاره، فقد كان يجري بسرعةٍ وبشكلٍ مُفاجئ ثمّ يتوقّف عن الحركة بشكلٍ مُفاجئ أيضاً ويحرّك يديه إلى أعلى وأسفل ويهزّ رأسه وهو يجري وقد التوت قَسماتُ وجهه بطريقةٍ غريبةٍ للغاية.

تساءلتُ قائلاً: ما خطب هذا الرّجل؟ إنّه ينظر في أرقام المنازل!

فقال هولمز وهو يفرك يديه: أظن أنّه قادمٌ إلى هذا المنزل الذي نحن فيه.

- إلى هنا؟!

- نعم، أعني أنّه قادِمٌ إلى هنا لاستشارتي في موضوعٍ ما، لقد رأيتُ مثل هذه الأعراض من قبل... ها، ألم أقل لكَ!



وفيما كان هولمز يتابع كلامه اندفع الرَّجل باتّجاه باب منزلنا بالفعل وهو يلهث بشدّة وأخذ يرن الجرس حتّى سمع الجميع صوت رنينه. وبعد دقائق قليلة كان الرّجل في الغرفة وهو لا يزال يلهث ويشير بيديه، وعلى الفور حوَّلت نظراته الحزينة اليائسة فرحنا بهذا الصّباح الشتوي الجميل إلى رعبٍ ممتزجٌ بالشَّفقة.

بقي لبعض الوقت غير قادر على الكلام وأخذ يهزُّ رأسه وجسده ويشد شعره كشخصٍ يكاد يجن، ثمَّ هبَّ واقفاً بشكلٍ مُفاجئ واتّجه نحو الجدار وأخذ يضرب رأسه به

بعنف ما دفعنا لجذبه إلى وسط الغرفة. جعله هولمز يجلس على كرسي مُريح، ثمَّ جلس بجواره وهو يحاول تهدئته بطريقته المُعتادة الفعّالة وقال له: لقد أتيتَ إلينا لتخبرنا ما حدث معك، أليس كذلك؟ ولكنّك الآن في وضعٍ سيء للغاية بسبب توترك، لذلك أرجو أن ترتاح وبعد ذلك تروي لنا ما حدث وأنا على استعداد لمساعدتك فيما تطلبه.

جلس الرّجل ساكناً لدقيقةٍ أو أكثر وهو يلهث محاولاً مغالبة مشاعره، ثمَّ مسح بمنديله على حاجبيه وزم شفتيه ثمَّ التفت باتجاهنا وقال: لا شك أنّكم تعتقدون أنّي مجنون.

أجابه هولمز محاولاً تهدئته: بل أعتقد أنّك تعاني نتيجة مشكلة رهيبة.

- يعلم الله أنّي في مشكلة تكاد تسبِّب لي الجنون لهولها وفظاعتها. لو أنّ الأمر يقتصر على الفضيحة العلنية لتمكّنتُ من مواجهته، رغم أنّي شخصٌ لم تشب سمعته أي شائبة من قبل. إنّ المآسي الشّخصيّة قدر كل منا، لكن أن تجتمع المأساة مع الفضيحة بهذا الشّكل الرّهيب سوف يزعزع هذا كيان أي شخص. بالإضافة إلى ذلك فإنّ الأمر لا يقتصر عليّ أنا فقط، فقد يعاني نتيجته أنبل شخص على وجه الأرض ما لم نتمكّن من تلمس طريقنا للخروج من هذه المسألة الرهيبة.

قال هولمز: أرجو أن تتمالك أعصابك يا سيّدي، لتتمكّن

من إخباري بوضوح من أنت وماذا حدث معك.

أجاب ضيفنا قائلاً: قد يكون اسمي مألوفاً بالنّسبة لك. أنا أُدعى ألكسندر هولدر من شركة هولدر وستيفينسون للأعمال المصرفيّة.

كان الاسم معروفاً بالنّسبة لنا بالفعل، فهو الشّريك الأكبر في ثاني أضخم مؤسّسة ماليّة ومصرفيّة خاصّة في لندن، فما الذي يمكن أن يكون قد حدث حتّى يصبح شخص يحتل مركزاً مرموقاً في المجتمع بهذه الحالة المثيرة للشفقة؟

انتظرنا بفضول حتّى استطاع بعد أن بذل ما بوسعه ليتمالك نفسه ويقول لنا قصّته. أخيراً تكلّم فقال: لقد قدّرتُ أنّ عامل الوقت مُهمٌّ للغاية، لذلك أسرعت بالقدوم إليك عندما نصحني ضابط الشرطة بذلك. لقد جئت إلى شارع بيكر بمترو الأنفاق، ثمّ هُرعتُ جرياً إلى هنا لأنّ عربات الأجرة تسير ببطءٍ على الثّلج ولذلك لم أكن قادراً على التقاط أنفاسي لأنّي لا أتمتع بلياقةٍ بدنيّةٍ عالية. على كل حال أشعر الآن بتحسن وسأحاول أن أخبرك بالوقائع بشكلٍ مُختصر لكن بوضوح.

أنتما تعرفان بالطّبع أنّ العمل المصرفي النّاجح يعتمد على قدرتنا على توظيف مواردنا المالية في استثمارات مربحة، كما يعتمد على توسيع دائرة معارفنا بهدف زيادة عدد المودعين. وتعتبر القروض أحد أكثر الطّرق ربحاً حين تكون هناك

ضمانات يعتمد عليها وموثوقة. لقد قدّمنا الكثير من القروض في السّنوات القليلة الماضية واستهلكت هذه القروض مبالغ ضخمة قدّمناها كقروض للعديد من العائلات النّبيلة بكفالة ما تملكه من لوحاتٍ فنيّة قيّمة أو مقتنياتٍ ثمينةٍ أخرى.

كنت بالأمس جالساً في مكتبي في المصرف عندما أحضر لي أحد الموظفين بطاقة تعريف، لأجفل عند رؤية الاسم المطبوع عليها، فهو لم يكن سوى... حسناً، ربما من الأفضل أن أقول لك أنّه اسمٌ معروفٌ في العالم كلّه، وهو أحد أرفع الشّخصيات وأنبلها في بريطانيا. لقد كنتُ فخوراً أن أخبره عندما دخل مكتبي كم تشرّفتُ بلقائه واختياره لي ليعمل معي، لكنّه دخل بصلب الموضوع على الفور وبدا كمن يرغب بالانتهاء من مهمةٍ كريهةٍ بسرعةٍ، فقال: لقد أخبروني أنّك تُقرِض المال يا سيد هولدر.

أجبته بالقول: تقوم الشّركة بذلك حين تكون الضّمانات جيّدة.

- أنا بحاجة إلى خمسين ألف جنيه في الحال،

أستطيع بالطّبع أن أقترض عشرة أمثال هذا المبلغ التّافه من أصدقائي، لكنّي أُفضّل أن يكون الأمر عملٌ بحت وأن أقوم به بنفسي. يمكنك أن تفهم أنّه ليس من الحكمة بشيء أن يقوم شخص بمركزي بالاستدانة من أي شخصٍ آخر.

فسألته قائلاً: هل يمكنني أن أعرف إلى متى ستكون بحاجة إلى هذا المبلغ؟

أجاب: سأحصل على مبلغ كبير يوم الاثنين القادم، وعندها سأُعيدُ لك قيمة القرض إضافةً إلى الفائدة التي ستحدِّدها، لكن من الضّروري جدّاً أن أحصل على المال في الحال.

فقلت له: سيكون من دواعي سروري وشرف لي أن أقرضك المبلغ من مالي الخاص وبدون أي مفاوضات إلا أنّ إمكاناتي لا تسمح، وحين سأقوم بإقراضك من حساب الشركة فمن باب الإنصاف تجاه شريكي أن أحصل على كل الضّمانات المُمكِنة.

فقال وهو يرفع حقيبة سوداء مربّعة الشّكل كان قد وضعها بجانب كرسيه: وأنا أفضِّل أن يتم الأمر على هذا النّحو. لقد سمعت عن تاج الزّمرُّد بالطّبع، أليس كذلك؟

أجبت: إنّه أحد أثمن ممتلكات إمبراطورتينا.

- بالضّبط.

ثمّ فتح الحقيبة التي كانت تحوي مجموعة الجواهر الثّمينة ضمن قطعة قماش أحمر ناعم وقال: يوجد في التّاج تسع وثلاثون زمرّدة، وهو يكاد لا يُقدّر بثمن. إنّ أقل تقدير لثمنه يبلغ ضعف المبلغ الذي أطلبه، وأنا على استعداد لأن يكون هو ضماناً عندك مقابل إعادة المبلغ.



أمسكت الحقيبة الثّمينة ونظرتُ فيها من الدّاخل ثمّ التفتُ إلى عميلي الكبير بشيءٍ من الحِيرة، فسألني قائلاً: هل تشك في قيمتها؟

- أبداً، لكنّي فقط أتساءل عن...

- عـن مدى سـلامة قراري بتركهـا بين يديـك؟ يُمكنكَ أن تطمئـن فلـو لم أكـن واثقـاً مـن اسـترجاعها مائـة بالمائـة خلال أربعـة أيـام لما تركتهـا أبداً، لكنّه إجراءٌ شـكلي فقـط. والآن هل هذا الضمان كافٍ؟

- إنّه أكثر من كافٍ.

- لعلّك تُدرك يا سيّد هولدر أنّي أُقدِّم دليلاً قويّاً على ثقتي بك، وهي ثقة بُنيت على ما سمعته عنك، لذلك سأعتمد على كتمانك للأمر وألا تناقشه مع أحد، وأن تتَّخذ كافة الاحتياطات المُمكنة للحفاظ على التّاج، فلستُ بحاجةٍ أن أخبرك عن مدى الفضيحة التي قد تحدث إن مسه سوء. إنّ أي ضرر قد يُصيبه سيكون بخطورة فقدانه تماماً، فليس هناك أي حجر زمرُّد في العالم يضاهي أحجار هذا التّاج. على كل حال سأتركه بعهدتك وأنا مُطمئن، وسوف أحضر بنفسي لاستلامه الاثنين القادم.

وعندما لاحظتُ كم كان عميلي مستعجلاً، طلبت الصرّاف وأمرته بإحضار المبلغ. وما أن أصبحتُ وحدي مع الحقيبة التي تحوي التّاج تملّكني بعض الخوف وأنا أُدركُ كم هي كبيرةٌ المسؤولية الملقاة على كتفي، وشعرتُ بالنّدم لأنّي وافقت على تحمّل هذه المسؤولية، لأنّ الفضيحة لا يمكن تخيلها إذا أصاب هذا التّاج أي مكروه، لكن الأوان قد فات على هذا الآن وهكذا وضعت التّاج في خزنتي الخاصّة وتابعتُ عملي كالمعتاد.

عندما حلَّ المساء اعتبرت أنّه من الحماقة أن أترك كنزاً ثميناً كهذا في المكتب وأنصرف، فقد سبق أن تم سرقة كثير من خزائن المصرفيين ولا يوجد ما يضمن عدم تكرار ذلك معي، لذلك قرّرتُ إبقاء الحقيبة التي تحوي التّاج معي طوال الأيام الثّلاثة التالية في كل تحركاتي، وبذلك أضمن أن يكون تحت ناظري طوال الوقت. وهكذا طلبت عربة أجرة واتّجهت إلى منزلي في ستريتهام حاملاً معي التّاج الثّمين، لكنّي لم أتنفّس الصعداء إلا بعد أن أخذتها إلى الطّابق العلوي وأغلقتُ عليها درج مكتبي في غرفة ملابسي.

سأخبرك الآن يا سيد هولمز عن كل الأشخاص الموجودين في منزلي لأنّي أود أن تكون لديك فكرة واضحة تماماً عن الموضوع. بالنّسبة للسّائس وخادمي الخاص فهما يُقيمان خارج المنزل لذلك يمكنك استبعادهما، أمّا من بقي فهنّ ثلاث خادمات يعملن لدينا منذ سنوات وليس لدي أدنى شك بإخلاصهنّ، وهناك خادمةٌ أخرى اسمها لوسي بار لم تمضِ معنا سوى بضعة شهور، وقد جاءت بتوصية ممتازة وأنا راضٍ جداً عن عملها، لكنّها فتاةٌ جميلةٌ جدّاً وتجذب المتطفلين من المعجبين الذين يتسكّعون في المكان من حينٍ إلى آخر، هذا هو مأخذنا الوحيد عليها لكنّنا نعتقد أنّها فتاةٌ جيّدةٌ جدّاً من كافة الجوانب.

أمّا بالنّسبة لعائلتي، فهي عائلةٌ صغيرةٌ جدّاً فأنا أرمل

وليس لدي سوى ولدٌ وحيدٌ اسمه آرثر، وهو يشكّل خيبة أمل عميقة بالنّسبة لي يا سيدي، وإن كان يجب أن ألوم نفسي على ذلك لا هو. فالنّاس يقولون أنّي دلّلته كثيراً ولعلي فعلاً دلّلته كثيراً، فعندما توفيت زوجتي شعرتُ أنَّه لم يعد له أحد سواي، لذلك لم أبخل عليه بأي شيء من حبي، وكنتُ أشتري البسمة على وجهه بأي ثمنٍ ولم أرفض له أمنيةً قط. ربما كان من الأفضل لو كنتُ أكثر صرامةً في التّعامل معه، لكنّي لم أقصد إلا الخير بدلالي له.

كنت أحلم أن يتولّى عملي من بعدي، لكنّي لم أجد لديه ميلٌ لهذا النّوع من الأعمال، بل كان يتصرّف بشكلٍ أهوج وهو صعب المراس. وفي الحقيقة لم أتمكّن من أن أئتمنه على مبالغ كبيرةٍ من المال، فقد التحق بأحد النّوادي المخصّصة لأبناء الأغنياء عندما كان صغيراً في السّن وتمكّن هناك وبسرعةٍ بفضل شخصيّته الجذّابة من إقامة صداقات مع عدد من الأثرياء أصحاب العادات التي تتسبّب في ضياع المال فتعلّم لعب ورق الشدّة وأخذ يُنفق المال بلا حساب في رهانات حلبة سباق الخيل، حتّى أنّه قصدني أكثر من مرةً لأعطيه سلفة على مخصّصاته الماليّة ليتمكَّن من تسديد ديون الشّرف! وقد حاول أكثر من مرّةً أن يبتعد عن تلك المجموعة لكنَّ تأثير صديقه السير جورج بيرنويل كان يعيده إليها مرةً بعد الأخرى.

في الحقيقة لم تُدهشني قدرة السير جورج بيرنويل بالتّأثير على ابني حيث أنّه أوصله أكثر من مرّةٍ إلى المنزل، وأنا نفسي كنت على وشك الانجذاب إلى شخصيّته القويّة، فهو أكبر سناً من آرثر، وهو ذكي ويملك خبرة كبيرةً تجعلك تعتقد أنّه يعرف كل شيء، وأنّه رأى كل شيء في العالم. إنّه متحدِّثٌ بارع، وهو وسيم، وبالرغم من حضوره السَّاحر فإنّي عندما أفكِّر فيه عندما لا يكون موجوداً بأنّه شخصٌ لا يستحق الثِّقة بسبب لهجته السّاخرة دوماً ونظرة عيونه غير المطمئنة. هذا هو رأيي، كما أنّه رأي صغيرتي ماري التي تتمتّع بفراسة امرأةٍ بارعةٍ في التّحليل السّريع للشّخصيّة.

ولم يبقَ أن أخبركما سوى عن ماري، وهي ابنة شقيقي التي كفلتها واعتبرتها ابنتي منذ وفاة أبيها قبل خمس سنوات وتركها وحيدةً في هذا العالم. إنّها ملاكٌ ينشر النُّور والدّفء في منزلي. إنَّها رقيقةٌ ومحبة وعطوفة وجميلةٌ، إضافةً لبراعتها المتناهية في إدارة شؤون المنزل كما تتمتّع بكل صفات المرأة الإيجابية من حنان ووداعة ورقة. إنّها فعلياً ساعدي الأيمن، ولا أعرف ماذا يمكن أن أفعل دونها، والأمر الوحيد الذي خالفتني به هو رفضها الزّواج بابني رغم أنّه طلبها مرَّتين ورغم حبِّه وتعلّقه الشّديد بها. أعتقد أنَّها الوحيدة التي يمكن أن تعيده إلى جادّة الصَّواب، وزواجها به قد يُغيِّر كل

نمط حياته السّيء. لكن الآن فات الأوان للأسف الشّديد.. فات الأوان.

هؤلاء، يا سيّد هولمز، كل أفراد منزلي وسأخبرك الآن ببقيَّة مُصيبتي. في تلك اللَّيلة وعندما كنا نتناول القهوة في غرفة المرسم بعد العشاء، أخبرت آرثر وماري بما حدث معي خلال النّهار، وبأمر الكنز الثّمين الموجود في منزلنا، لكنّي لم أخبرهم باسم عميلي. وبالرُّغم من أنّي متأكِّدٌ أنَّ الخادمة لوسي بار غادرت الغرفة بعد أن أحضرت القهوة، إلا أنَّني لا أجزم بأنَّ الباب كان مغلقاً، وقد أبدى كل من آرثر وماري اهتمامها بالتّاج الشَّهير ورغبتهما في رؤيته، ولكنّي فضَّلتُ أن أتركه حيث وضعته. وسألني حينها آرثر قائلاً: أين وضعته؟



قلت: في درج مكتبي الخاص.

فقال: فلنبتهل إلى الله ألا يسطو أحد على منزلنا في اللّيل.

أجبته: لقد أحكمت الإغلاق عليه.

- آه، إنّ أي مفتاح قديم قد يفتح درج المكتب ذاك، فعندما كنتُ صغيراً فتحته بمفتاح خزانة الغرفة الصّغيرة.

لم أُبال بكلامه لأنّه غالباً ما يتحدّث بطريقةٍ غير مُنظمة، لكنّه تبعني إلى غرفتي في تلك اللّيلة وعلامات التّجهم الشّديد واضحة على محيّاه، وقال وهو مطرقٌ رأسه في الأرض: هل يمكنك أن تعطيني مائتي جنيه يا أبي؟

أجبته فوراً وبحدّة: لا، لا أستطيع. لقد كنتُ كريماً معك بما يكفي خصوصاً عندما يتعلّق الأمر بالمال.

فقال: لقد كنتَ كريماً جدّاً معي بالفعل، لكن يجب أن أحصل على هذا المبلغ وإلا فلن أتمكّن من الذّهاب إلى النّادي ثانيةً.

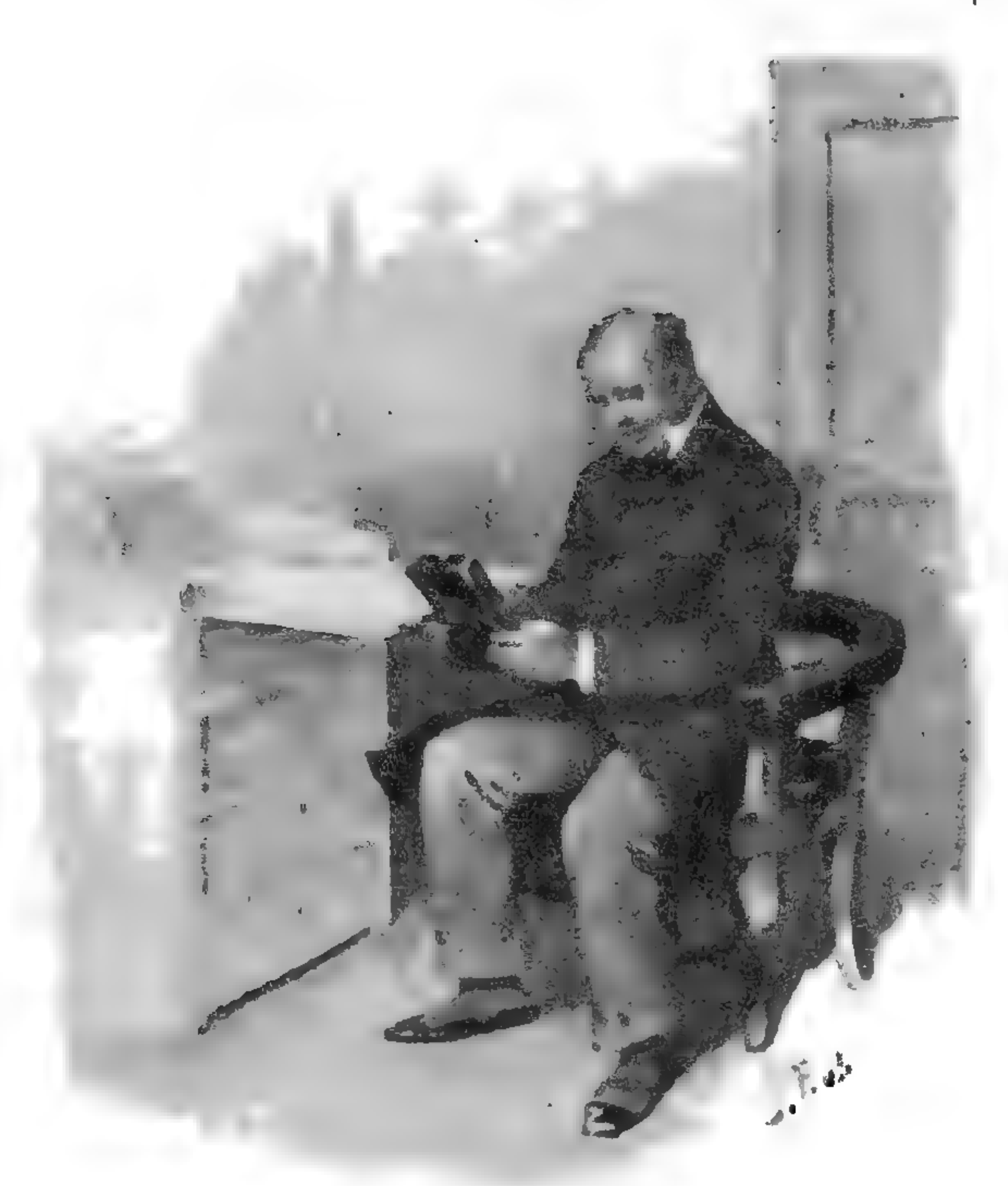
صحتُ بغضبٍ قائلاً: هذا سيكون أمراً جيّداً جدّاً.

- نعم، لكنّك لن تجبرني على تركه وأنا مكلّلٌ بعار قلّة النّزاهة. لن أتحمّل ذلك العار، لذلك عليّ تدبير المال بأي طريقة، وإذا لم تعطني إياه سأكون مضطّراً للحصول عليه بأي طريقةٍ أخرى.

فشعرتُ بغضبٍ شديد لأنّها المرة الثّالثة التي طلب فيها

المال هذا الشّهر، فصرختُ به قائلاً: لن تنال مني أي نقود.

عندها انحنى احتراماً وغادر الغرفة دون أن ينبس ببنت شفة. بعد مغادرته فتحتُ درج مكتبي لأتأكّد أنّ التّاج بأمان ثمّ أغلقته ثانيةً.



وبعد ذلك انطلقت في جولةٍ لأتفقّد المنزل والتّأكد من تأمينه، وهي مهمة كنت عادة أدع ماري تتولاها لكني فضّلتُ أن أقوم بها بنفسي تلك الليلة. وعندما نزلت الدّرج رأيت ماري تقف عند النّافذة الجانبية للقاعة وقد قامت بإحكام إغلاقها عندما اقتربت، وقالت وقد ظهر الانزعاج على وجهها: أخبرني يا أبي، هل منحت الخادمة لوسي إذناً للخروج الليلة؟

- بالطبع لا.

- لقد دخلت لتوها من الباب الخلفي عائدةً من الخارج، وأنا متأكدة أنّها كانت عند البوابة الجانبية تقابل أحدهم. هذا تصرف أخرق ويجب أن تتوقّف عن القيام به.

- يجب أن تتحدّثي إليها في الصّباح، أو سأتحدّث معها بنفسي إذا كنتِ تفضلين ذلك. هل أنتِ متأكدة أنّ كل شيء مغلقٌ بإحكام.

- متأكدةٌ تماماً يا أبي.

- تصبحين على خير، إذن.

ثمّ قبّلتها وصعدت إلى غرفتي ثانيةً حيث غفوت سريعاً.

إني أحاول إخبارك بكل شيء متعلق بالموضوع يا سيد هولمز، وأرجو أن تسألني عن أي نقطة تجدها غامضة كي أوضحها بشكلٍ جيد.

أجاب هولمز: بل إنّ روايتك واضحةٌ تماماً.

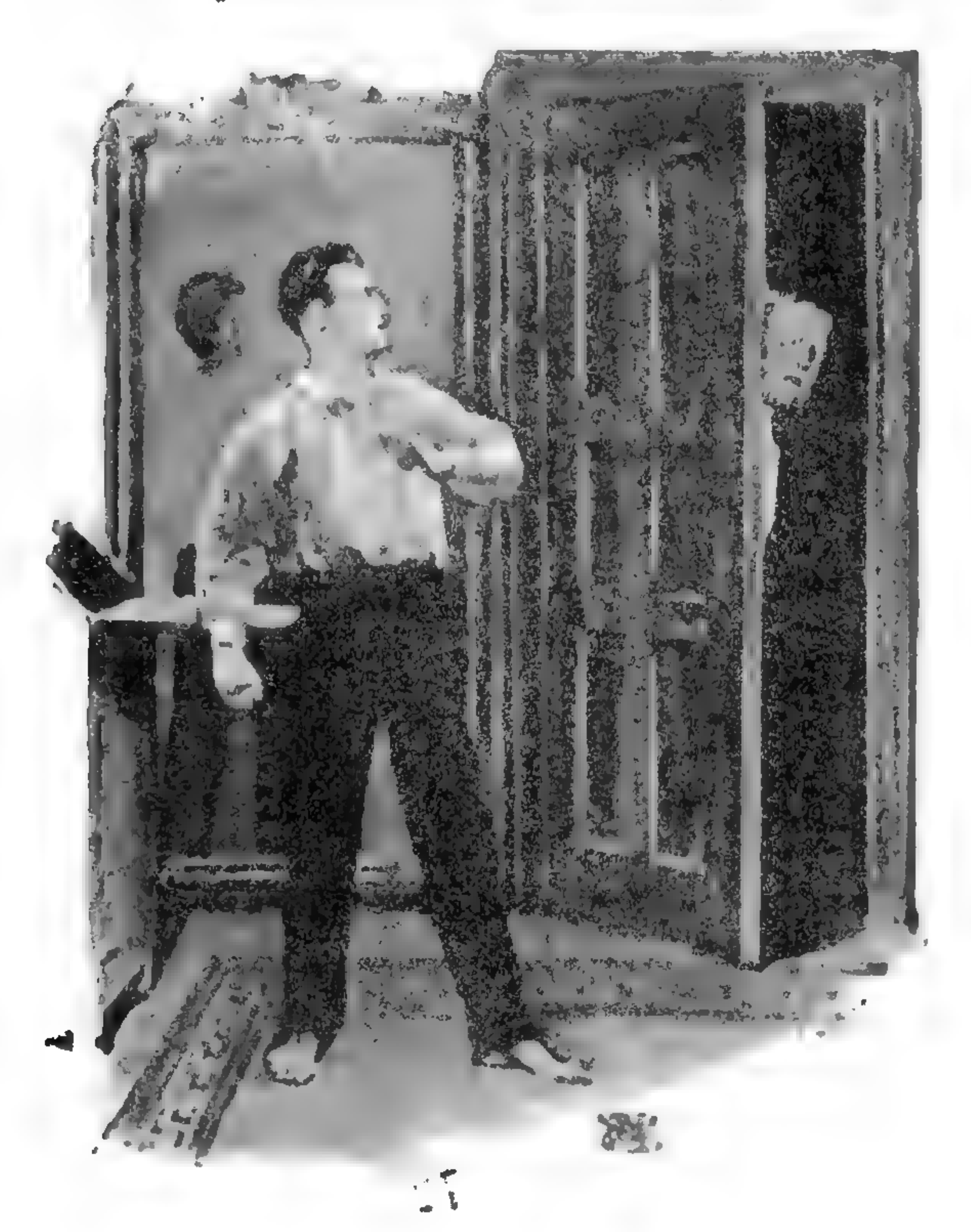
- لقد وصلت إلى الجزء الذي أتمنّى أن يكون في غاية الوضوح. في العادة لا يكون نومي ثقيلاً، وفي تلك الليلة وبسبب القلق من موضوع التّاج كان نومي أبعد ما يكون عن النّوم. عند حوالي الثانية فجراً استيقظتُ على صوتٍ ما، ورغم أنّ الصّوت اختفى قبل أن استيقظ تماماً، إلا أني شعرتُ وكأنّه صوت نافذةٍ يُغلق بهدوء في مكانٍ ما من المنزل.

نهضت لكنّي بقيتُ في السّرير وأصغيتُ بتركيزٍ شديد، وفجأة سمعت أصواتاً واضحةً لأقدام تتحرّك بخفةٍ في الغرفة المجاورة، فنزلت عن سريري وأنا أرتجف من الخوف، ثمّ نظرتُ بحذرٍ باتجاه باب غرفة ملابسي، ثمّ صرختُ قائلاً: آرثر! أيها اللّص الحقير! كيف تجرّأت على لمس التّاج؟!

كان الضوء خافتاً كما تركته ورأيت ولدي التعس يقف بجوار المصباح ممسكاً التّاج بيده، وقد بدا وكأنّه يحاول أن يلويه أو يثنيه بكل قوّته. عندما سمع صرختي، أسقطه على الأرض واستدار نحوي بوجهه الشّاحب وكأنّه قد خرج للتو من قبر.

التقطتُ التّاج رفعته إلى الأعلى حتّى أتفحّصه، وعندها اكتشفتُ اختفاء قسم من إطاره الذّهبي وهو كان يحوي

ثلاثة من أحجار الزّمرد، فصرختُ به وقد خرجتُ عن طوري بسبب الغضب الشّديد: أيها النّذل، لقد دمّرته وجلبت العار لي، العار إلى الأبد! أين الجواهر التي سرقتها؟



صاح قائلاً: سرقتها؟! ماذا؟!

فأخذتُ أرغي وأزبد وأنا ممسك به من كتفيه وهززته قائلاً: أجل أيها اللّص!

فقال: لا شيء مفقود، لا يمكن أن يكون أي شيء مفقوداً

بل فُقدت ثلاث زمردات وأنت تعرف أين هي. هل يجب عليّ أن أصفك بالكاذب إضافةً إلى وصفك بالسّارق؟ ألم أشاهدك بأم عيني وأنت تحاول انتزاع جوهرة أخرى من التّاج؟

أجاب: لقد أهنتني بما يكفي ولن أحتمل أكثر من ذلك، كما أنّي لن أنطق بكلمةٍ حول هذا الموضوع، بما أنّك قرّرت أني سارق وكاذب. سأغادر منزلك في الصّباح وأشق طريقي في الحياة وحدي.

أفقدني الغضب والحزن صوابي، فصرخت به قائلاً: ستغادر المنزل برفقة الشرطة لأنّي سأطلب التّحقيق في هذا الأمر لأتمكّن من التّوصل إلى الحقيقة.

فقال بانفعالٍ فاجأني بشدّة لأنّي أول مرةً أراه هكذا: حسناً إذن، لن تعرف شيئاً مني، وإذا قررت الاتصال بالشرطة لنرى ماذا ستستطيع الشرطة أن تكتشف.

في تلك الأثناء كان كل من في المنزل قد استيقظ بسبب صياحي نتيجة غضبي الشّديد، وكانت ماري هي أول من

وصل إلى غرفتي، وقد أدركت على الفور ما حدث عندما رأت التّاج ووجه آرثر، فصرخت ووقعت على الأرض مغشياً عليها. أرسلت بعد ذلك الخادمة في طلب الشرطة وسلّمت الأمر لهم فوراً. وعندما دخل مفتش الشرطة برفقة شرطي آخر إلى المنزل سألني آرثر، الذي كان يقف متجهماً وقد عقّد ذراعيه على صدره بشكلٍ عنيد، إذا كنتُ أنوي اتّهامه بالسرقة، فأجبته أنّ الأمر تجاوز العلاقة الشّخصية كون التّاج الذي تعرّض للتّخريب يعتبر كنزاً وطنياً، لذلك كنتُ مُصرّاً على أن تأخذ العدالة مجراها في الأمر.

فقال حينها: على الأقل أرجو أن لا تدعهم يلقون القبض عليّ في الحال، فإنّ من مصلحتك ومصلحتي أن تتركني أغادر المنزل لخمس دقائق فقط.

فقلت له: هل تريدني أن أفعل ذلك لتتمكّن من الهرب أم من أجل إخفاء ما سرقته؟

بعد ذلك توسّلتُ له أن يتذكّر أنّ سُمعتي ليست الوحيدة المعرّضة للخطر نتيجة الأمر، بل سمعة شخص نبيل جداً وأنّه بذلك قد يتسبّب في فضيحة ستهز كيان الأمّة كلها. وأخبرته أنّه بإمكانه إخباري بمكان الأحجار المفقودة وقلت له: يجب أن تواجه الموقف بشجاعة، فقد أمسكتُ بكَ متلبساً، ولا يمكن لأي اعتراف أن يضيف شيئاً إلى فظاعة

عملك، لكن إن صحّحت الأمور وهو أمرٌ باستطاعتك القيام به، فسوف أنسى كل ما حدث وأسامحك.

أجابني قائلاً: احتفظ بمسامحتك لنفسك أو لمن يطلبها منك. ثم استدار مبتعداً عني وهو ينظر لي بازدراء. وحين رأيت أنّ كلامي لم يؤثّر به بل زاده عناداً لم يعد أمامي سوى نقل الأمر ليد الشرطة، فقاموا بتفتيشه شخصياً وتفتيش غرفته وكل مكان كان من الممكن أن يكون قد أخفى الزمردات فيه داخل المنزل. لكنّهم لم يجدوا شيئاً ولم يفلحوا بحمله على الكلام بالرغم من التّهديد والوعيد الذي كالوه ضده. وقد تمّ نقله هذا الصّباح إلى السجن، فيما أنهيتُ أنا المعاملات الرّسمية وأسرعتُ إليك عملاً بنصيحة المفتّش لاعترافه أنّه غير قادر على القيام بشيءٍ في هذه القضيّة المعقدة. سيدي، يمكنك أن تفعل ما تراه ضرورياً وتنفق ما تشاء وقد قمت برصد مكافأة مقدارها ألف جنيه للوصول إلى الزمردات. يا إلهي ماذا يجب أن أفعل؟ لقد فقدتُ في ليلةٍ واحدةٍ سمعتي وابني والجواهر التي تم ائتماني عليها.

وضع يديه على صدغيه وأخذ يهز إلى الأمام والخلف كمن أصابته لوثة، وأخذ يهمهم كطفل أفقده الخوف القدرة على الكلام. أمّا شارلوك هولمز فقد جلس صامتاً لبضع دقائق وقد عقد حاجبيه وركّز عينيه على نار المدفأة ثمّ سأله قائلاً: هل تستقبلون زواراً كثر؟

- نكاد لا نستقبل أحداً سوى شريكي وعائلته، إضافةً إلى بعض أصدقاء آرثر الذين يزورونا بين الفينة والأخرى، كما زارنا السير جورج بيرنويل عدّة مرات مؤخراً، ولا يوجد أحد آخر على ما أعتقد.

- هل تشاركون في مناسبات اجتماعيّة بشكلٍ كبير؟

- آرثر يفعل، أمّا بالنّسبة لي ولماري فعادةً ما نبقى في المنزل لأنّ كلانا غير مهتم بمثل هذه الأمور.

- هذا أمر غير اعتيادي بالنّسبة لفتاة.

- إنّ طبيعتها هادئة، كما أنّها ليست صغيرة جداً، فهي في الرابعة والعشرين.

- بدا مما قلته أنّ ما حدث صدمها هي أيضاً.

- لقد تأثّرت بالأمر بشكلٍ مرعب، بل فاق تأثرها تأثري بالأمر.

- ألم يعتقد أي منكما أنّ ابنك قد يكون بريئاً من السرقة؟

- كيف ذلك وقد رأيته بأم عيني والتّاج بين يديه؟!

- شخصياً، لا أعتبر ذلك دليلاً قاطعاً. هل لحق ضرر بالجزء المتبقي من التّاج؟

- نعم، لقد حدث فيه التواء.

- ألا تظن أنّ ابنك كان يحاول تقويم اعوجاج التّاج؟

- بـالله عليـك، شـكراً لـك على كل حـال، لكن هـل تحاول التّخفيـف عنـي وعنه بإبعـاد التّهمة عنـه؟ لكنّه أمـرٌ صعب، فما الـذي كان يفعلـه في الغرفـة عـلى أي حـال؟ وإذا كان غرضـه شريفاً فلماذا لم يفصح عنه؟

- بالضّبـط، فلـو كان مذنبـاً لمـاذا لم يخترع كذبـة لينجـو بها مـن المـأزق. يبـدو لي أنّ صمتـه يوحـي بأحـد الأمريـن. أشـعر بوجـود العديـد من النقـاط الغريبـة في القضيةأ عـلى كل حال ما رأي الشرطة في الصوت الذي أيقظك من نومك؟

- لقـد فـسروه عـلى أنّـه الصّـوت النّاتـج عـن إغـلاق آرثر لباب غرفة نومه.

- هـذا تفسـيرٌ غير محتمل. فمـن ينوي ارتكاب عمل شـائن لا يغلـق بـاب غرفتـه بعنـف لينبـه الجميـع إليـه! ومـاذا قالـوا بشأن اختفاء تلك الزُّمردات؟

- مـا زالوا يطرقون عـلى الألواح الخشـبية ويفحصون أثاث المنزل علهم يعثرون عليها.

- هل فكَّروا بالبحث خارج المنزل أو في محيطه بالتّحديد؟

- نعـم إنّهـم يعملـون عـلى الأمـر بنشـاطٍ كبيرٍ، فقـد قاموا بتفتيش الحديقة كلّها بشكلٍ دقيقٍ للغاية.

قـال هولـز: والآن يـا سـيدي العزيـز، أليـس مـن الواضح

لـك أنّ هـذه القضيـة تحمـل في طياتهـا أكثـر ممـا بـدا لـك وللشرطـة؟ فـما بـدا لـك وكأنّـه قضيـة بسـيطة تبـدو لي قضيـة غايـة في التّعقيـد. فـإذا دقّقـتَ جيـداً في تصـورك لمـا حـدث، سـتجد أنّـك تفـترض أنّ ابنـك نهض من فراشـه ودخـل ،رغم المخاطـرة الكبـيرة في ذلـك، إلى غرفـة تبديـل ملابسـك ليفتـح درج مكتبـك ويقـوم بإخـراج التّاج، ثـمّ يقوم باسـتعمال كل ما يملكـه مـن قـوّةٍ لاقتطاع جـزء من التّـاج، ثمّ يذهـب بعد ذلك إلى مـكانٍ آخـر يخفـي فيـه الزمـردات بخفّةٍ بحيـث لا ينتبـه له أحـد مـن الموجوديـن في المنـزل وبعدها يعـود ومعـه الزمردات السـت والثلاثـين الباقية مـن أصل 39 زمـرة موجـودة في التّاج ويعـرّض نفسـه إلى خطـر اكتشـافه. هـل هـذا معقـول برأيـك ياسيدي؟

صـاح المـصرفي بيـأس قائـلاً: لكـن من فعـل ذلـك إذن وما البديل لأقتنع به؟ ولماذا لم يبرِّر لي تصرفاته لو كان بريئاً؟

أجـاب هولـمز بالقـول: إنّ مهمتنا هي اكتشـاف السر خلف ذلـك الصّمـت، لذلـك سـوف نذهـب معـاً إلى سـتريتهام وندرس الموضوع عن كثب.

أصرّ صديقـي عـلى وجـوب مرافقتـي لهـما في تلـك الرحلـة الاستكشـافية، كـما أنّي كنـت شـخصيّاً متشـوِّقاً لذلـك لأنّ مـا سـمعته مـن المـصرفي أثـار فضـولي وتعاطفـي بنفـس الوقـت.

وأعـترف أنّ تورط الابـن كان واضحاً بالنّسبة لي مثل وضوحه بالنّسـبة لأبيـه، لكنّـي بالرغـم مـن ذلك كنـت أثق بـرأي هولمز مـا جعلنـي أشـعر بـأنّ هنـاك أملاً مـا لم يكـن هولمز راضيـاً عن التّفسير الذي ذهب إليه المصرفي.

لـزم هولـمز الصّمـت طـوال رحلـة الطّريـق إلى الضّاحيـة الجنوبيـة للمدينـة، وجلـس في العربـة مطرقـاً رأسـه وقـد أنزل قبعتـه لتغطـي عينيـه وغـرق بتفكـير عميـق، فيـما كان الأمـل يـدور في نفـس عميلنـا نتيجـة ثقتـه بقـدرة هولمز على تفسـير ما حـدث، وخـرج مـن حالتـه الغريبـة وأخـذ يتحـدّث معـي في حوار متقطّع عن عمله.

وصلنـا بعد رحلـةٍ قصيرةٍ بالقطـار وأخرى عـلى الأقدام إلى فيربانـك وهـو المنـزل المتواضـع لهـذا المـصرفي الكبـير. كان فيربانـك منـزلاً مبنيـاً مـن الحجـارة البيضـاء، مربـع الشّـكل ويبعـد عـن الطّريـق مسـافة قصـيرة جـداً. كان أمامـه طريـق مـزدوج للعربات يخـترق مرجـاً، كان الثّلج يغطيـه ويمتد المرج حتّـى يصل إلى بوابتـين حديديتين تغلقان المدخـل. على الجانـب الأيمـن كان هنـاك ممـر ضيـق يمتـد مـن الشّـارع بين سـياجين أنيقـين لبـاب المطبـخ ليكـون بذلـك بـاب مخصّـص للبائعـين والخـدم، أمّـا الجانـب الأيـسر فـكان ممـراً ضيقـاً يـؤدي إلى الإسـطبلات، ولـو أنّـه ليـس ضمـن حـدود الحديقة حيـث أنّه

طريقٌ عام رغم أنّه لا يُستخدم إلا نادراً.

كنّا نقف عند الباب عندما تركنا هولمز فجأةً ودار ببطء حول المنزل بأكمله، حيث سار عبر المدخل حتى الممر المؤدِّي إلى باب الباعة والخدم، ثمّ تابع دورانه حول المنزل عبر الحديقة الخلفية حتّى بلغ الطّريق الضّيق المؤدِّي إلى الإسطبلات. استغرق وقتاً لا بأس به في هذه العملية، لذلك سبقته مع السيد هولدر إلى داخل المنزل وانتظرناه في قاعة الطّعام قرب المدفأة حتّى يعود. جلسنا بانتظاره بصمت وفتح الباب لتدخل منه سيِّدةٌ شابة. كانت متوسطة الطّول أو أطول من ذلك بقليل، نحيلة وقد منح شحوبها الشّديد مزيداً من السّواد إلى عينيها وشعرها. لم أرَ من قبل امرأةً بهذا الشّحوب قط. حتّى شفتاها كانتا شاحبتين أيضاً، أمّا عيناها فكانتا محتقنتين من البكاء. لقد خلّفت لديَّ انطباعاً أقوى من ذلك الذي خلّفه المصرفي صباحاً.

سارت عبر الغرفة بصمت وبدا واضحاً من مشيتها وحركتها أنّ لها شخصيّة قويّة وتتمتّع بمقدارٍ كبيرٍ من السيطرة على نفسها. اتّجهت مباشرةً إلى عمِّها، دون أن تعير وجودي أي اهتمام ومرّت بيدها على رأسه بطريقةٍ أنثوية حنونة، ثمّ تساءلت قائلةً: لقد أمرتهم بإطلاق سراح آرثر، أليس كذلك يا عمي؟



- لا، لم أفعل يا ابنتي. يجب التَّحقيق في الأمر حتَّى نتوصّل إلى نتيجة.

- لكنّي متأكدة تماماً أنّه بريء، وأنت تعرف كيف هي غريزة المرأة، فأنا مقتنعةٌ أنّه لم يفعل ما هو خطأ وأنّك ستندم على ما فعلته معه لمعاملتك إياه بهذه القسوة.

- لماذا لا يتكلّم إذا كان بريئاً إذن؟

- من يدري؟ ربما لم يتكلّم لأنّه كان غاضباً جدّاً من شككَ فيه.

- وكيف لا أشك فيه وقد رأيته بأم عيني وهو يحمل التّاج بين يديه؟

- هذا صحيح، لكنّه كان يحمله فقط لينظر إليه. أرجوك، أرجوك ثق بحدسي وصدِّق كلامي حين أقول لك أنّه بريء. يجب أن تتنازل عن اتّهامك له، فمن المريع تصوُّر وجود العزيز آرثر في السّجن.

- لن أفعل أو أتراجع حتّى نعثر على الزُّمردات، لن أفعل يا ماري! إنّ مشاعرك تجاه آرثر تمنعك من رؤية التّبعات السَّيئة التي ستحل بي. لقد أحضرت معي من لندن شخصاً سيتولّى التّحقيق في القضية بدقة أكبر بدل التّستر على الموضوع.

فاستدارت نحوي وسألت: هذا السّيد؟

- لا، بل صديقه، لكنّه طلب منّا أن نتركه وحده وهو الآن يتجوّل في الطّريق المؤدّي إلى الإسطبلات.

أبدت استغرابها وقالت: طريق الإسطبلات، لكن ما الذي يمكن أن يجده هناك؟ آه، ها هو قد جاء على ما أعتقد.

عندما اقترب هولمز قالت له: إنّني أعتمد عليك يا

سيدي لإثبات براءة ابن عمي آرثر من هذه الجريمة، وهو الأمر الذي أنا متأكِّدة منه.

أجابها هولمز: أوافق الرّأي تماماً وأنا على ثقة من أنّي سأتمكّن من إثبات ذلك بمساعدتك.

ثمّ عاد إلى الممسحة قرب الباب لينفض الثّلج عن حذائه وتابع قائلاً: أظن أنّي أتشرّف بمخاطبة الآنسة ماري هولدر، فهل لي أن أسألك سؤال أو اثنين؟

- أرجوك افعل يا سيِّدي إذا كان في ذلك ما يُساعد في حل هذه المسألة المُريعة.

- ألم تسمعي شيئاً ليلة أمس؟

- لم أسمع شيئاً حتّى بدأ عمي يصيح ويتحدّث بصوتٍ مرتفعٍ ونبرةٍ حادَّةٍ غاضبةٍ وقد أسرعت إليه عند سماعي ذلك.

- هل أغلقتِ النَّوافذ والأبواب اللّيلة الماضية؟

- نعم.

- وهل وجدتها كلَّها محكمة الإغلاق هذا الصّباح؟

- نعم.

- أظن أنّ إحدى الخادمات لديها صديق أو عشيق، وأذكر أنَّكِ عبّرتِ عن انزعاجكِ من هذا الموضوع لعمك ليلة أمس عندما خرجتْ هي لتراه، أليس كذلك؟

- نعم، وهي نفس الخادمة التي قامت بخدمتنا قبل ذلك في تلك اللّيلة، وهناك احتمال كبير أن تكون قد سمعت ما قاله عمي بشأن التّاج.

- حسناً، لقد فهمت. أنتِ تُلمحين إلى دور محتمل للخادمة في اختفاء التّاج وذلك بأنّها خرجت وأخبرت عشيقها، وبعد ذلك دبّر الاثنان السّرقة؟

هنا صرخ المصرفي بنفاذ صبر: لكن ما الجدوى من كل هذه الافتراضات غير المفيدة والغامضة وقد أخبرتُكَ أنّني رأيت آرثر وهو مُمسِكٌ بالتّاج بين يديه؟

- أرجو أن تصبر قليلاً يا سيد هولدر وسنناقش لاحقاً ما تقول. بخصوص الفتاة يا آنسة هولدر، أعتقد أنّكِ أنتِ مَن رأتها تعود من باب المطبخ؟

- نعم، فعندما ذهبتُ للتّأكد من إغلاق باب المطبخ واجهتها وهي تتسلّل عائدةً إلى الدّاخل، كما رأيتُ الشّاب أيضاً رغم الظّلام.

- هل تعرفيه؟

- نعم، إنّه الفتى الذي يحضر الخضراوات إلى المنزل واسمه فرانسيس بروسبر.

- هل كان يقف على يسار الباب؟ قريباً جداً من الباب..



- نعم، نعم لقد فعل ذلك.
- وهل له ساقٌ خشبيّة؟

ظهرت الدّهشة على وجه الشّابة، وغزا ما يشبه الخوف عينيها السّوداوين المعبرتين وهي تقول: عجباً! إنّكَ ساحر. كيف عرفتَ ذلك؟

ثمّ ابتسـمت، لكن الابتسـامة لم تجد صداها عـلى وجه هولمز النّحيـل، بـل قال: أتمنّـى أن أصعد الآن إلى الطّابـق العلوي، كما أنّـه مـن المحتمـل أن أستكشـف المنزل مـن الخارج مـرّةً أخرى، ولكـن قـد يكـون مـن الأفضـل أن أتفحّـص نوافـذ الطّابـق السُّفلي قبل الصّعود إلى الأعلى.

تنقـل هولمز برشـاقةٍ وخِفَّـةٍ بين نوافـذ الطّابـق الأرضي. ولم يتوقّـف سـوى عنـد النّافـذة الأكـبر التـي تُطـل عـلى الطّريـق المـؤدي إلى الإسـطبلات. فتح النّافـذة وتفحص حافّتها بشـكلٍ دقيق مُسـتخدماً عدسـته المُكَبِّرة، ثـمَّ قال أخـيراً: والآن لنذهب إلى الطّابق الأعلى.

كانـت غرفـة ملابس المـصرفي صغـيرةً ولا يوجـد فيها قطع أثـاث كثـيرة. كان مـا فيهـا لا يتعـدّى سـوى وجـود سـجادة رماديـة ومكتـب كبـير ومـرآة طويلـة. ذهـب هولمـز إلى المكتب أولاً وتفحَّـص القفـل جيِّـداً، ثـمّ سـأل: مـا هـو المفتـاح الـذي فُتح الدِّرج به؟

- إنَّـه المفتاح الذي أشـار إليه ابني بنفسـه. إنّـه مفتاح خزانة غرفة التَّخزين.

- هل هو معك هنا؟

- إنّه هناك على طاولة الزّينة.

أخـذه هولمـز وفتـح المكتب، ثـمّ قـال: إنّه قفل بـلا صوت، وهـذا هـو السّـبب في أنّـك لم تسـتيقظ. آه، أعتقـد أنّ هـذه هـي الحقيبة التي تحوي التّاج؟ يجب أن أتفحّصها.

فتح الحقيبة ووضع التّاج على الطّاولة بعد أن أخرجه منها. كان التّاج نموذجاً رائعاً لفن صانعه، كما أنّ أحجاره السّتّة والثلاثين المتبقية كانت من أنقى الأحجار الكريمة التي رأيتها في حياتي. كان أحد طرفي التّاج مكسوراً وهو المكان الذي انتُزعت منه الزّاوية التي تحمل الزمردات الثّلاث.

قـال هولمـز: والآن يا سـيد هولدر، هـذه هي الزّاويـة المقابلة لتلـك المكسـورة التـي سُرقـت. هل يمكنـك كسر هـذه الزّاوية المقابلة؟

تراجـع المـصرفي إلى الخلـف مذهولاً مـن هذا الـكلام وقال: أنا لا أجرؤ على التّفكير بمثل هذا الأمر.

- سأحاول أنا إذن القيام بذلك.

اسـتعان هولمـز بـكل مـا لديـه مـن قـوة محـاولاً كـسر زاوية التّـاج لكـن دون جـدوى ثـمّ قـال: أعتقـد أني ثنيته قليـلاً، لكنّ هـذا جـل مـا تمكّنـتُ مـن القيـام بـه، وأنـا شـخصٌ قويٌّ جـدّاً وسـوف يسـتغرق مني وقتـاً طويـلاً لأتمكّن من كـسره، فكيف لشـخصٍ عـادي أن يفعل ذلـك وبوقتٍ قصـيرٍ جـدّاً؟ والآن يا

سيد هولدر، ما الذي سيحدث حين أتمكّن من كسره؟ سوف يصدر صوتاً قويّاً جدّاً كطلقة المسدس، فهل تريد أن تقنعني أنّ هذا ما حدث على بعد أمتار قليلةً منك دون أن تستيقظ أو تسمع شيئاً؟

- إنّني في حيرةٍ من أمري، وكل شيء أصبح غامضاً جدّاً بالنسبة لي.

- سوف يتبدّد الغموض مع تقدّمنا في التّحقيق. ما رأيك أنتِ يا آنسة هولدر؟

- أعترف بأنّي محتارة ومشوّشة مثل عمي.

- هل كان ابنك ينتعل حذاءً أم خُفاً للنّوم عندما رأيته؟

- لم يكن يرتدي سوى قميصه وبنطاله.

- شكراً لك. إنّ الحظ يقف جانبنا في هذا التّحقيق وسيكون ذنبنا إن لم نتمكّن من حل هذه القضية. بعد إذنك يا سيد هولدر، سوف أتابع بحثي خارج المنزل.

خرج هولمز وحده كما رغب مفسّراً الأمر بأنَّ آثار الأقدام الكثيرة إذا رافقناه سوف تزيد صعوبة مهمته. وقد استمرَّ بتفحّص محيط المنزل لساعةٍ أو أكثر، ثمّ عاد أخيراً والثّلج يغطي حذاءه، وملامحه لا تشي بأي شيء كالعادة ثمّ قال: أعتقد أنّك تفحّصتُ كل شيء يا سيّد هولدر، وسأكون أكثر

فائدةً بالنّسبة لك إذا عدت إلى منزلي.

– وماذا عن الزمردات يا سيد هولمز؟ هل عرفتَ أين اختفت؟

– لا أعرف.

رفع المصرفي يديه إلى السّماء وصرخ: ألن أراها ثانيةً؟ وماذا عن ابني؟ لقد منحتني الأمل يا سيد هولمز.

– رأيي لم يتغيّر بهذه القضية.

– إذن ما الذي جرى في منزلي ليلة أمس، أخبرني بالله عليك.

– إذا تمكّنتَ من القدوم إلى منزلي في شارع بيكر بين الساعة التّاسعة والعاشرة من صباح الغد، سوف يكون من دواعي سروري أن أبذل كل ما بوسعي لأوضح لك الأمر بطريقةٍ أفضل. كما فهمت منك أنت تمنحني الصّلاحيات الكاملة لأتصرّف نيابةً عنك على أن أعيد الزمردات، بالإضافة إلى عدم وجود حدود للمبلغ الذي سأسحبه.

– أنا على استعداد للتّنازل عن ثروتي مقابل استعادة الزمردات.

– عظيم، سأدرس الأمر منذ الآن وحتّى ذلك الوقت. إلى اللقاء الآن، لكن بالمناسبة قد أكون مضطراً إلى العودة إلى هنا.

كان واضحـاً بالنسـبة لي أنّ صديقـي قـد استقرّ عـلى نظرية معينـة بشـأن الأمر، بعكـسي أنا فلم أسـتطع أن أخـرج من هالة الغمـوض المحيطـة بالموضـوع. وفي طريق عودتنـا، حاولت أن أفتـح الموضـوع معـه، لكنّـه كان يتملّـص منـي ويتحـدّث في موضوعٍ آخر حتى تخليت عن السؤال.

وصلنـا إلى منزلنـا في شـارع بيكر قبـل الثّالثة، فـأسرع هولمز بالصّعـود إلى غرفتـه ثمّ نـزل ثانيةً بعـد دقائق قليلةٍ وهـو متنكّر بـزي متسـكّع وضيـع، وقد أجـاد التّنكر. قـال وهو يلقـي نظرةً سريعـة عـلى المرآة: أعتقـد أنّ هذا سـيفي بالغرض، كنـت أتمنّى أن تسـتطيع مرافقتـي يـا واطسـون لكنـي أخشـى أنّ هـذا غـير ممكـن أو مفيد. أعتقـد أنّي على المســار الصّحيح في هـذه القضية وقـد يكـون مـا أسـعى وراءه مجـرّد سراب، وهـذا ما سـيتحدّد قريباً. أرجو أن أعود بعد ساعاتٍ قليلة.

ثـم اقتطـع شريحـة مـن لحـم العجـل المقـدَّد الموجـود عـلى طاولـة الطّعـام ووضعها بـين طبقتي خبـز ودسّ الوجبة في جيبه ثمّ انطلق في سبيله.

كنـت قـد انتهيت من تنـاول الشّـاي عندما عـاد هولمز. كان واضحـاً أنّـه وجـد مـا توقعـه، وكان ذلـك جليـاً مـن مزاجـه الممتاز.



أخذ يؤرجح بيده حذاءً قديماً له أطراف مطاطيّة ثمّ رماه في الزّاوية وأعدّ لنفسه كوباً من الشّاي. أخيراً تحدّث فقال: كنت ماراً فقط. سأبقى لوقتٍ قصير ثمّ سأخرج ثانيةً.

- أين ستذهب؟

- إلى النّاحية الأخرى من الجهة الغربية من المدينة. قد يطول بك الانتظار، لذلك لا تتأخر بالسّهر في انتظار عودتي.

- وكيف أمر التّحقيق، هل هناك أي تقدُّم؟

- الوضع ليس سيئاً وليس جيداً أيضاً لكن ليس لدي ما أشكو منه. لقد قصدت ستريتهام بعد أن رأيتك آخر مرة لكنني لم أدخل إلى المنزل. إنّها قضية لطيفة وبسيطة ولم أكن لأفوّت على نفسي فرصة المشاركة بها مهما كان الثّمن. على كل حال يجب أن لا أنسى نفسي بالثّرثرة معك هنا، بل يتوجّب عليّ تبديل هذه الملابس الرّثة وارتداء ملابسي المحترمة المعتادة.

استطعت أن ألمس ارتياحه لما قام به في القضية، وأنّ لديه أسباباً قويّة تجعله يتحدّث بثقةٍ مُطلقةٍ عن الحل الحتمي. فقد لمعت عيناه وتسلّلت حمرة الخجل إلى عينيه وهو يُسرع إلى الطّابق الأعلى لتبديل ملابسه. بعد دقائق سمعت صوت الباب يُغلق وهو في طريقه إلى الخارج، فأدركتُ أنّه خرج وراء صيده المحبّب.

انتظرت عودته حتّى منتصف اللّيل، وعندما غلبني النّعاس أويت إلى فراشي. لم يكن أمراً مستغرباً أن يغيب لأيام أحياناً إذا كان يسعى خلف شيءٍ ما، لذلك لم يفاجئني تأخره. لم أعرف في أي وقت عاد، لكن عندما نزلت لأتناول إفطاري وجدته هناك حاملاً بيده فنجاناً من القهوة وباليد الأخرى صحيفة يقرأها وهو بكامل حيويته ونشاطه وأناقته.

قال: أنا آسف يا واطسون لأني بدأتُ بإفطاري قبل نزولك، لكنّك تذكر الموعد المبكر لعميلنا هذا الصّباح.

أجبته قائلاً: يا للعجب! لقد تجاوزت السّاعة التّاسعة، ولن أُدهش إن كان هو من جاء الآن، فقد سمعت صوت الجرس.

وكان القادم بالفعل هو صديقنا المصرفي. لقد صدمني التّغير الكبير الذي حلّ به خلال يومٍ واحدٍ فقط، فقد تحوّل وجهه العريض الضّخم إلى وجهٍ هزيلٍ، فيما بدا شعره وكأنّه ازداد بياضاً من الشّيب الإضافي الذي حل به خلال يوم واحد فقط! دخل إلى الغرفة وعلامات الضّعف والوهن والإرهاق واضحةً تماماً على وجهه وجسده، ووجدت وضعه أكثر سوءاً من صباح الأمس عندما كان مهتاجاً.

رمى بنفسه على الكرسي الذي دفعته إليه وقال: لا أعرف ماذا ارتكبت من أخطاء حتّى تقع مثل هذه المصيبة على رأسي، فمنذ يومين فقط كنت رجلاً سعيداً وناجحاً في عملي

وليس لدي أي همّ في هذا العالم. أمّا الآن فأنا في أسوأ وضع يمكن أن يكون فيه إنسان مكلّلاً بالعار، والمصائب تتوالى بالحلول فوق رأسي، فقد تخلت عني أيضاً ابنة أخي ماري.

- تخلّت عنك؟!

- نعم، فهذا الصباح كانت غرفتها خالية، وكان واضحاً أنّها لم تنم في سريرها ليلة أمس. كما تركت رسالةً قصيرةً على طاولة القاعة. هل يعقل أنّها غضبت مني لأنّي أخبرتها ليلة أمس بأسف وليس بغضب أنّها لو كانت وافقت على الزّواج بابني لكانت أصلحت حاله. ربما كنت قاسياً معها بهذا الكلام، فهي تشير إليه في رسالتها التي تركتها لي والتي تقول:

عمي الغالي:

يبدو أني تسبّبت لك بمشكلة ولو أني تصرّفت بطريقةٍ مختلفةٍ لما كانت هذه المصيبة الرهيبة قد حلّت على رأسك أبداً، وبذلك لن أكون سعيدة بعد الآن بالحياة في منزلك، ولذلك قرّرت أن أترك البيت إلى الأبد. لا تقلق بشأني فمستقبلي مؤمّن، وأهم من أي شيء لا تبحث عني، فذلك سيكون جهداً بلا طائل وسوف يسبّب لي كثيراً من الحرج.

المخلصة لك إلى الأبد: ماري

- ماذا تعني ماري بهذه الرسالة يا سيد هولمز؟ هل تعتقد

أنها تشير إلى إمكانية قيامها بالانتحار؟

- لا، لا شيء من هذا القبيل، رغم أنّ ذلك قد يكون الحل الأمثل. أنا واثقٌ أنّك تقترب من نهاية متاعبك يا سيد هولدر.

- ماذا؟! أحقاً ما تقول؟! هل عرفت شيئاً جديداً يا سيد هولمز؟ هل عرفت؟ أين هي تلك الزمردات؟

- أتظن أنّ ألف جنيه مقابل كل واحدة منها مبلغ كاف؟

- أنا مستعد لدفع عشرة آلاف جنيه مقابل كل واحدة.

- هذا غير ضروري، فثلاثة آلاف تكفي لاستعادتها وهناك مكافأةً صغيرة على ما أعتقد. هل تحمل دفتر شيكاتك معك؟ خذ القلم من الأفضل أن تكتب في الشيك مبلغ أربعة آلاف جنيه.

حرّر المصرفي الشيك المطلوب والدّهشة تعتريه، ثمّ تقدّم هولمز باتّجاه مكتبه أخرج منه قطعةً ذهبيّةً مثلثة الشّكل مثبّتٌ عليها ثلاثة أحجار كريمة من الزمرد وألقى بالقطعة على الطاولة.

أطلق عميلنا صرخة فرح عظيمة وهو يضع يديه على القطعة المفقودة من التّاج وشهق قائلاً: لقد جلبتها! لقد نجوت، نجوت!

ثمّ عبّر عن سعادته بنفس الحدة الانفعالية التي كان

بالأمس يعبر بها عن مأساته وضم الجواهر المُستردّة إلى صدره. بعد ذلك قال شارلوك هولمز بصرامة: أنت مدين بشيء آخر يا سيد هولدر.

- مدين؟!

ثمّ سارع لالتقاط القلم وتناول دفتر الشيكات قائلاً: حدّد المبلغ الذي يتوجّب عليّ دفعه يا سيد هولمز.

- لا، الدين ليس لي، بل أنت مدين باعتذار حقيقي وصادق لابنك النّبيل فعلاً، فقد تصرّف في هذا الموضوع بشكلٍ يجعلك تشعر بالفخر أنّه ابنك.

- إذن آرثر لم يكن هو من سرقها؟

- لقد أخبرتُك بالأمس، وأُكرِّر اليوم أنّه لم يفعل ذلك.

- هل أنت متأكد من ذلك؟! دعنا إذن نسرع إليه ونخبره بأنّ الحقيقة قد ظهرت وبأنّه بريء.

- إنّه يعرف ذلك بالفعل ومسبقاً، فقد ذهبتُ للقائه بعد أن اتضحتُ الأمر، وعندما وجدته مُصرّاً على عدم إخباري بالقصة، أخبرته أنا بها. عندها اعترف بأنّي على حق وأضاف بعض التّفاصيل القليلة جدّاً التي لم تكن واضحةً بالنسبة لي بشكلٍ تام.... وإن كانت الأخبار التي جلبتها هذا الصباح قد تجعله يتكلّم.

- إذن أخبرني بالله عليك، أوضح لي كل التّفاصيل في هذا اللّغز الرّهيب!

- سأفعل، وسوف أوضح لك الخطوات التي اتّخذتها في الحل، لكن دعني أخبرك أولاً ما يصعب عليّ إخباره كما سيصعب عليك سماعه. لقد اكتشفت أنّ هناك نوعاً من التّفاهم بين السير جورج بيرنويل وبين ابنة أخيك ماري، وقد هربا معاً بحلول هذا الوقت.

- ماري؟! ماذا؟! هذا مستحيل!!

- الأمر أكثر من مجرّد احتمال للأسف، بل أمر واقعٌ ومؤكّد. أنت وابنك لم تعرفا شخصيّة جورج الحقيقية عندما سمحتما له بدخول بيتك. إنّه أحد أخطر الأشخاص في انكلترا، فهو مدمن على لعب القمار وهو وغد لا أمل في إصلاحه أبداً، كما أنّه بلا قلب أو ضمير. ابنة أخيك لا تعرف ، للأسف، شيئاً عن هذا الشّخص الخطير وعندما رمى حبائله حولها وقعت بسهولة كما وقعت مئات الفتيات السّاذجات قبلها، وشعرت بأنّها فعلاً مُميزة لأنّها الوحيدة التي ملكت قلبه كما صوّر لها الأمر. وهكذا غدت ماري أداة بين يديه يستخدمها كما يشاء، وقد اعتادت على رؤيته خلسةً كل ليلة تقريباً.

صاح المصرفي وقد اصفرّ وجهه حتّى أصبح كالأموات: لا، هذا غير معقول. لا أستطيع تصديق هذا الكلام، لن أفعل، أبداً!

– سأخبرك إذن بما حدث في منزلك ليلة أمس. عندما ظنّت ماري أنّك ذهبت غرفتك تسلّلت لتقابل حبيبها عبر النّافذة المطلّة على طريق الإسطبلات. كانت آثار أقدامه واضحةً تماماً على الثّلج ما يدل على طول المدة التي بقيها تحت النّافذة. وعندما أخبرته ماري عن التّاج حرّكت داخله الشر والشّهوة للذهب فاستمالها لتنفيذ رغبته. أنا لا أشك أبداً بحبها المخلص والصادق له، وهي من النّوع الذي يتغلّب شعوره بالحب على أي التزام آخر. وما أن استمعت إلى ما يريد شاهَدتْكَ تنزل من الطّابق العلوي وأخبرتك عن تصرفات الخادمة الطّائشة مع حبيبها ذي السّاق الخشبية وهو أمرٌ صحيحٌ بالمناسبة.

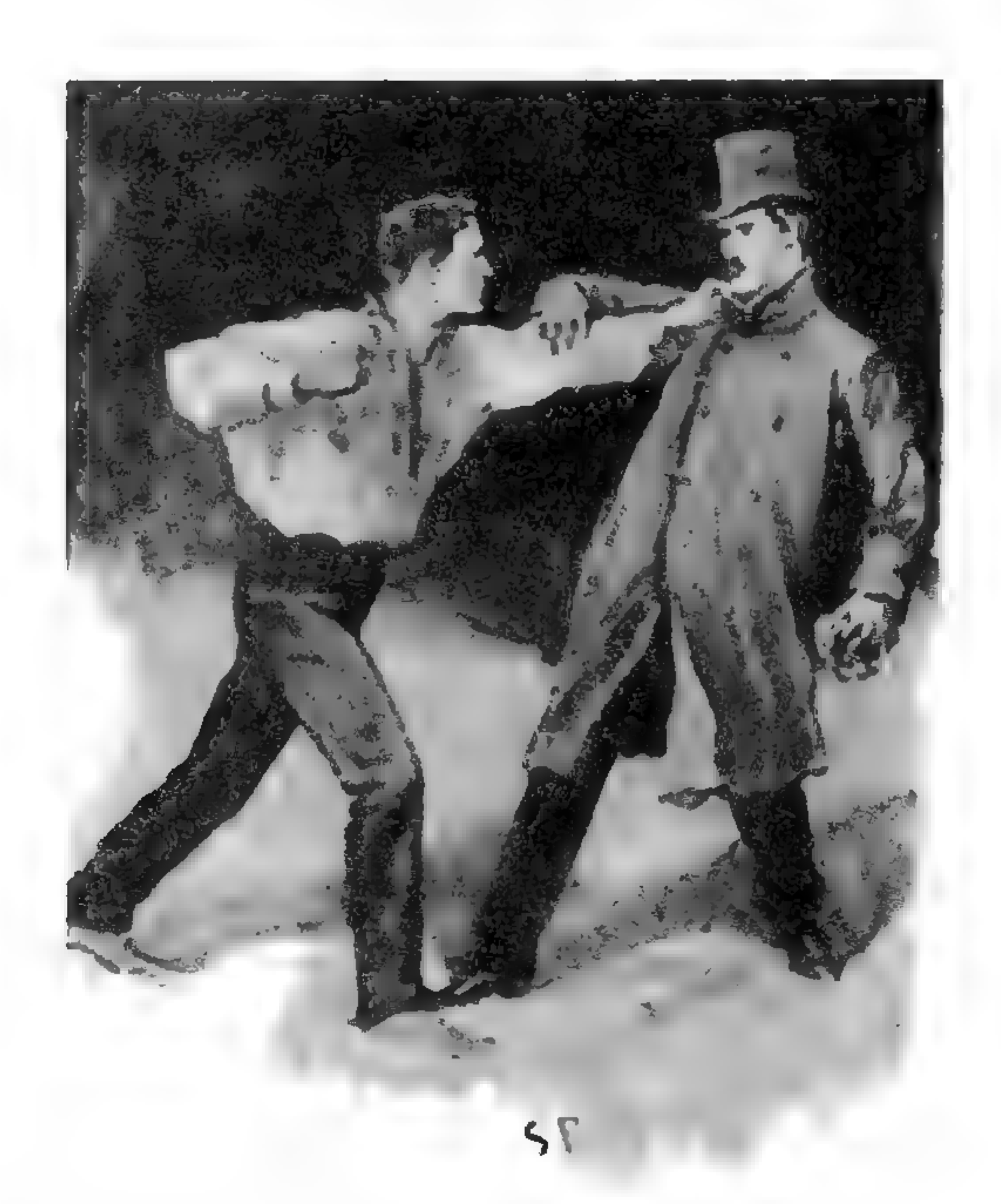
أمّا بالنّسبة لابنك آرثر، فقد ذهب لينام بعد حديثه معك، لكنّه لم يتمكّن من النّوم بسبب انزعاجه من موقفك تجاهه. وفي منتصف اللّيل سمع صوتاً خافتاً لخطوات تمر أمام بابه، فنهض واستطلع الأمر ليُفاجأ بأنَّ ماري كانت تتسلّل خِلسة عبر الممر، ثمّ تدخل إلى غرفة ملابسك. أذهلته الصّدمة فارتدى بعض ملابسه وانتظر في منطقة مظلمة ليرى ما سيحدث. خرجت ماري من الغرفة بعد قليل حاملةً معها التّاج وعندما نزلت الدّرج، أسرع لينزل خلفها واختبأ خلف السّتارة القريبة من باب غرفتك حيث كان قادراً على رؤية ما يجري في القاعة في الطّابق الأرضي. رأى آرثر ماري تفتح النّافذة وتعطي التّاج لشخص

يقف في الظّلام، ثمّ تُغلق النّافذة ثانية وتسرع إلى غرفتها. ومرّت بجانب الستارة التي يختبئ خلفها دون أن تلاحظ وجوده.

لم يتصرف آرثر حتّى لا يفضح الفتاة التي يُحب، لكنّه أدرك مدى الكارثة التي ستحل بك، وقرّر العمل على إصلاح الموقف بأي ثمن، فأسرع بالنزول بسرعةٍ ودون حتّى أن ينتعل حذاءً وفتح النّافذة ثمّ قفز خارجاً في الثّلج وركض في الممر الضّيق. تمكّن من رؤية خيال على ضوء القمر وركض خلفه بكل سرعته. حاول السير جورج بيرنويل الفرار لكنّ آرثر تمكّن منه ودار بينهما شجارٌ عنيف وتمكّن آرثر من إمساك التّاج من زاويته وضرب جورج على وجهه ليجرحه فوق عينه. فجأةً انكسر شيء ما أثناء الشجار واكتشف ابنك أنّه يمسك بالتّاج بين يديه فأسرع عائداً ودخل من النّافذة وأغلقها ثمّ صعد إلى غرفتك حيث انتبه حينها أنّ التّاج قد التوى نتيجة العراك وكان يحاول تجليسه أو تسويته عندما نهضتَ أنت ورأيته.

شهق المصرفي بذهول وصدمة وقال: هل هذا معقول؟!

- وعندها أثرتَ أنت غضب آرثر بإهانتك له فيما كان يتوجّب عليك شكره، ولم يكن ليقل لك حقيقة ما حدث لأنّه لم يشأ فضح ماري التي لم تكن تستحق حبه وتقديره، لكنّه على كل حال تعامل مع الموضوع بأخلاق شخصٍ نبيلٍ وحافظ على سرّها.



٦٢

- صاح هولدر قائلاً: لهذا صرخت وسقطت مغشياً عليها عندما رأت التّاج؟ آه، يا إلهي! كم كنت أعمى وأحمق! لهذا طلب مني أن أسمح له بالخروج لخمس دقائق... لقد كان ابني العزيز يريد البحث عن القطعة المفقودة في مكان العراك. آه، كم كنت قاسياً في الحكم عليه!

تابع هولمز سرد الأمر قائلاً: ما أن وصلت أنا إلى منزلك يوم

أمس حتّى سارعت بالدّوران حوله وأنا أبحث بدقّةٍ متناهيةٍ عن أي آثار على الثّلج قد تساعدني، فقد كنت أعرف أنّ الثّلج لم يهطل اللّيلة قبل الماضية وأنّ البرد والصقيع سيحافظان على الآثار كما هي. وعندما تجوّلتُ على طول خط ممر الباعة والخدم ووجدت آثاراً كثيرةً مختلطة بحيث لا يمكن التّمييز بينها، وإن وجدت خلف باب الخدم مباشرةً آثار أقدام الخادمة وصديقها صاحب السّاق الخشبيّة. واستطعتُ أن أعرف أنّ أحداً ما قاطعهما لأنّ آثار أقدام المرأة كانت تتّجه بسرعةٍ وخفّةٍ نحو الباب كما يظهر من مقدمة القدم الغائرة في الثّلج وكعبها الذي لم يكن يلامس الأرض تقريباً. لقد ظننت أنّ تلك الآثار للخادمة وصديقها وقد صدق ظني. ولم أجد في باقي الحديقة سوى آثاراً متفرِّقةً خمنت أنّها لرجال الشرطة، لكن عندما وصلتُ إلى الممر الضّيق وجدتُ آثاراً توحي بحدوث أمرٍ كبيرٍ وكانت قراءة رسالة الثّلج هذه معقّدةٌ جدّاً.

كان هناك خط مزدوج من الآثار لرجلٍ يرتدي حذاء وخط آخر لرجلٍ حافي القدمين، وتأكّدتُ أنّ صاحب هذه الآثار هو ابنك لأنّك أخبرتني أنّه لم يكن ينتعل حذاءً. كان الأول قد سار باتجاهين أمّا الآخر فقد ركض بسرعةٍ، وبما أنّ خطواته تركت أثراً في بعض الأماكن فوق أثر صاحب الحذاء فقد كان من الواضح أنّه مر بعد الشّخص الأول.

تتبّعتُ الآثار فوجدتها تؤدي إلى نافذة القاعة حيث أزاح صاحب الحذاء كل الثّلج تحت النافذة بينما كان ينتظر، ثمّ مشيتُ مسافة مائة متر أو أكثر لأصل إلى النّاحية الأخرى من الطّريق فرأيت المكان الذي استدار صاحب الحذاء عنده، ورأيت هناك كيف اضطرب الثّلج نتيجة صراع حدث فوقه، وأخيراً رأيتُ بضع قطرات من الدّم ما أكّد شكوكي. وقد ركض صاحب الحذاء على طول الطّريق ودلّ ظهور بقعة دمٍ ثانية أنّه هو من كان ينزف وعندّما وصل الأثر إلى الشّارع العام وجدتُ أنّ الرّصيف قد تمّ تنظيفه وبهذا انتهى الدّليل إلى نهايةٍ مجهولة.

وإذا كنت تذكر فقد بادرت فور دخولي إلى المنزل إلى فحص عتبة نافذة القاعة وإطارها الخشبي مستخدماً عدستي المكبرة، فاستطعتُ على الفور رؤية أنّ شخصاً قد خرج عبرها، كما استطعتُ تمييز الخط الخارجي لمشط قدم مُبللة تخطو نحو الدّاخل، وعندها تمكّنت من تكوين نظرية عمّا حدث. فقد انتظر أحد الأشخاص خارج النّافذة حتّى أحضر آخر من أهل البيت أو سكانه المجوهرات إليه وهو الأمر الذي شاهده ابنك، فقام بمطاردة اللّص وتعارك معه وأخذ كل منهما يشد التّاج ناحيته بعد أن كان الاثنان ممسكان به وقد انقسم نتيجة قوتهما، وعاد ابنك بالجزء الأكبر من التّاج بينما بقي الجزء الصّغير مع اللّص.

حتّى هذه النقطة، كان كل شيء واضح لكن بقي سؤال دون جواب، وهو من كان ذلك الشّخص؟ ومن أحضر له التّاج من داخل المنزل؟ إنّ المبادئ الأساسية بالنسبة لي أنّنا حين نستبعد المستحيل يكون ما تبقى الحقيقة مهما كان صعب تصديقها. والآن بما أنّي أعرف أنّه لم يكن أنت من أحضره فلم يعد هناك سوى ابنة أخيك والخادمات، لكن إن كان الأمر ذنب إحدى الخادمات، فلماذا يخاطر ابنك بحياته وسمعته من أجلها؟ ولم أرَ موجباً منطقياً لذلك. لكن بما أنّ آرثر كان يُحب ماري فقد بدا هذا تفسيراً منطقياً جدّاً لتستّره عليها. وعندما ذكرتَ أنتَ لي أنّها كانت بالقرب من النّافذة وأنّها فقدت الوعي عند رؤية التّاج، تأكّدتُ أنّ لها دوراً رئيسياً فيما حدث.

وهنا تساءلتُ من يمكن أن يكون شريكها الذي هرّبت التّاج له؟ لا بد أنّه شخصٌ تحبه بجنون وإلا من المستحيل أن تفعل هذا بعمها أو أبيها بالأحرى من أجله.

لقد عرفت منك أنّكما لا تخرجان كثيراً، وأنّ علاقاتكما الاجتماعيّة تكاد تكون غير موجودة، كما علمت أنَّ دائرة أصدقائكما محدودةً للغاية وتتضمّن السير جورج بيرنويل الذي كنتُ أعرف عنه وعن سمعته السّيئة، وأنّه زير نساء ماكر، فلا بد إذن أن يكون هو من كان ينتظر تحت النّافذة وهو الشّخص صاحب الحذاء وبالتّالي هو من سرق التّاج

وأخـذ الزمـردات الثّـلاث. وبالرغـم أنّ آرثـر كشـفه إلا أنّ جـورج كان مطمئنـاً إلى أنّـه بأمان حيـث أنّ آرثر مـا كان ليبوح بشيءٍ قد يُعرِّض أسرته لخطر الفضيحة.

بعـد ذلـك، ذهبـتُ إلى منـزل السـير جـورج بيرنويـل وأنـا متنكـر بهيئـة متسـكع وتمكَّنتُ مـن التّعرف عـلى خادمه الخاص الـذي أخـبرني أنّ سـيّده قـد جُـرح في رأسـه ليلـة أمـس. وقـد حرصـتُ عـلى شراء أحـد أحذيـة جـورج البالية مقابـل بعض شـلنات لأمنـح الخـادم مكافـأةً لقـاء المعلومـات بطريقـةٍ غـير مبـاشرة، والأهـم لأنّي أخذتهـا معـي إلى سـتريتهام لأتأكّـد مـن أنّها تتوافق تماماً مع آثار الأقدام.

قـال السـيد هولـدر: لقـد رأيـتُ متـشرِّداً بملابـس رثة على طريق الإسطبلات مساء أمس.

- بالضّبـط، كان ذلـك الرجـل أنا. وعندما اكتشـفتُ أنّي قد عثـرت عـلى ضالتـي عـدت إلى المنـزل وغـيّرتُ ثيابي فقـد كان الـدّور الـذي يجـب أن ألعبـه دقيقـاً للغايـة، لأنّي عرفـت أنّنا لن نتّخـذ أي إجراءات قانونية ضد السـير جـورج بيرنويل لتفادي الفضيحـة. وعرفـتُ أنّ شـخصاً بمثـل شره ومكـره سـيكون حريصـاً كل الحـرص عـلى أن نظل عـلى حالنا المحـدود الحركة في القضية، لذلك قرّرتُ زيارته.

- في البدايـة وكـما توقعت أنكر كل شيء، لكـن حين حدّثته

بكل التّفاصيل الدّقيقة لما حدث حاول تهديدي وأمسك بهراوةٍ كانت بالقرب منه، ولأنّي أعرف حقيقته وكم هو جبانٌ رعديد لكن غدّار وجّهت مسدسي بسرعةٍ إلى رأسه قبل أن يتمكّن توجيه ضربته لي ليصبح على الفور أكثر هدوءاً وتعقلاً. وعندما أخبرته بأنّنا سنعطيه ألف جنيه مقابل كل زمردة من الزمردات الثّلاث بانَ الأسى على وجههِ للمرّة الأولى قال باستسلام: يا للكارثة! لقد بعت الثّلاثة أمس مقابل ستمائة جنيه فقط!

تمكّنت من الحصول على عنوان المشتري بسرعةٍ بعد أن وعدته بعدم مقاضاته، وذهبتُ إلى المشتري فوراً حيث استطعت بعد مفاوضات مضنية معه أن أحصل على الجواهر مقابل ألف جنيه للقطعة، ثمّ ذهبتُ إلى ابنك وأخبرته بأنّ كل شيء على ما يرام وفي آخر الأمر عدت لأخلد إلى النّوم حوالي الثّانية صباحاً بعد يومٍ شاق.

قال المصرفي وهو ينهض: إنّه يومٌ عظيم لك يا سيد هولمز، لقد أنقذت انكلترا من فضيحةٍ كبرى. أنا عاجزٌ عن شكرك فقد قدّمت لي خدمة ما كنت أتصوّر أنَّ شخصاً في العالم قادرٌ عليها. الآن يجب أن أسرع إلى ابني لأعتذر له عمّا سببته له من أذى، أمّا فيما يتعلّق بالمسكينة ماري فأنا أُشفق عليها، وأنت رغم مهارتك لم تخبرني أين هي الآن.



أجابه هولمز قائلاً: يمكننا القول أنّها مع السير جورج بيرنويل في مكانٍ ما، ومن المؤكّد أيضاً أنّها ستنال جزاء ما اقترفته من ذنوب قريباً جدّاً أينما ذهبت.

• انتهى •